



شخصية أبي شادى

في ديوانه «الينبوع»

بقلم الأديب حسن كامل الصيرفي

يمرّ صدى المطرب أمام جهاز «الراديو» فيطوف في الأثير بين رياح عاصفة ونسمة هادئة، ويمتزج في ضجيج الحياة وجلبتها ويفرق في صمت البوادي والقفار، حتى يتلقاه جهاز الاستلام فاذا الصوت ناطق بشخصية صاحبه.. كذلك يمر ذهن الشاعر بمحيط الحياة، يسمو إلى الأفلاك فلا يسمع منه أهل الأرض إلا همسات ونجوى يستشعرون فيها حناناً وراحة، ويهبط منها إلى صخب الحياة فيحاول أن يلفظ من حدة ذلك الصخب بأنغام قيثارته، ولكن جمود الحياة يستثيره فيترك القيثارة لحظات تراه فيها صاحباً نائراً متمملاً، وهو بين سموه عن الحياة وبين اندماجه فيها محتفظ بشخصيته

وهناك شعراء يفقدون شخصياتهم في جولاتهم الواحد منهم كالمهرج عليه رقع ليس بين ألوانها وحدة وتناسب. فالاحتفاظ بالشخصية يرجع إلى مؤهلات الشاعر الفنية، فالأول يطوف ويقف ويخلق ويهبط، وهو ينظر إلى العالم كما ينظر المصور إلى اللوحة التي يخط عليها بريشته عارفاً حدودها. أما الآخرون فيسيرون في طريقهم على غير هدى لم يرسوا لأنفسهم غاية.

وبمقدار احتفاظ الشاعر بشخصيته تكون قوته أو ضعفه، فلننظر إذاً في ديوان «الينبوع» ولنبحث عن شخصية أبي شادى، وعن مدى ظهورها أو تلاشيها. ولقد قرأت هذا الديوان فما كانت شخصية ناظمه تنأى عني أو تنمحي من أمامي قد يفقد الشاعر في أثناء حلمه الجميل ذاته ولكنه لن يغيب عن قارئه إذا استطاع أن يمزج روحه بآثاره.

فأبو شادى الذي أعرفه في حياة الناس شعلة فانية يريد أن يجمع العالم في يده فيحيله قطعة فنية في أقصر وقت كما تحيل

النظرة الفاتنة دنيا العاشق لحظة قصيرة العمر مسرعة الخطى يتعجل اقتناص ما وراءها، هو نفسه أبو شادى الذي عرفته في حياة الشعر شعلة فانية يشقيها التسامى ويفنيها الكد.

فلأبي شادى شخصية واحدة تظهر دائماً وإن تنوعت ثيابها وتشكلت، فهو محب للحياة متصوف في حبه عالمي الروح، يريد الحياة خالصة سامية، يريد لها قطعة فنية، فهو يحاول تهذيبها، أو هو يحاول تلوينها بألوان من السعادة تختلف فتبدو للناس عجيباً، ومجتمع عنده في قرارة نفسه، فلا يراها إلا وحدة متماسكة الأطراف متساوقة لاتناقض فيها، ويراهها طريقاً إلى غايته وسبيلاً إلى أداء فكرته، وإليه يشعر بحيرته بين كل هذا، ولكنها حيرة الشاعر أمام ربط معاني قصيدته حتى يلم بها فاذا هي آية تؤلف بين أبياتها وحدة تامة فيقول:

عبيت من قلبي فيما وجدت له وفي المعاني لكوني أولأحلامي
أسائل النهر عنها وهو مضطرب
مثلي، وأصحب كالمهوت أعوامي
وأنتحي عن وجودي شبه منعدم

في الصمت، والصمت آمالي وآلامي
في حيرة وكأني عالمٌ يئست منه الحياة فعافت روحه الدامي
أبكي وأضحك في نفسي فان بها من التناقض إيساري وإعدامي
ما بين ضدين قد عاشت وليس لها من شاغل غير معنى عيشها السامي
تصدّرت لهموم الناس تسعدهم وعوقبت بين أحباب وأخصام
ولقد ظلت غايته، وهي نشدان المثل الأعلى، تتبعه كظله حتى
أكسبته هذه الشخصية: شخصية الصوفي العالمي؛ فهو أمام
الجمال المغربي صوفي يحوّل الشهوة الصاخبة في أعماق جسده فناً
يملاً روحه ويغمرها، ولا يرى في ذلك الجمال إلا روح الوجود
وروح الفن كما في قصيدته «العيون المتكلمة»

ولقد جاهر الكثيرون ممن نقدوا أبا شادى بأن في قصيدته
«الينبوع» التي يقول فيها:

أيها الينبوع كم ساع إليك يدعى بغضاً كما أهوى لديك
كل ما يرجوه موقوف عليك فاذا الانعام منك وإليك!

وعشت في وحدتي الموفور في شرفي

أبكي وأضحك والاحداث تلتطم

ولقد جمع ديوان «الينبوع» صوراً شتى لصوفية أبي شادي

الغالبه عليه منها هذه الأبيات من قصيدة «غليون الشاعر»

أشعل الغليون من نا رى وحيداً في الظلام

ناظراً نحو سماء في ضرام كضرامي

خبأتها غير لمع في نجوم كابتسامي

حرقه الدنيا أطلت من ثقب في الغمام

كل ما فيها جميل هو قلب في اضطرام

وكان الخالق الفن ان يشقى بالتسامي

وهذه الأبيات من قصيدة «وداع الشاطيء في الاسكندرية»

هي لوعة الفنان العازف بين الصخور الصماء :

إيه يا قلب تأمل هذه دنيا الصراع

يبدع الفنان لكن هو كالنور المشاع

خاسر مهما تفاني في رفاة وابتداع

وفي قصيدته «عيش الألوهة» صفحة ٦٣ نزوع قوى الى

التغلغل في أعماق كل ألوان الجمال ، ليعيش في لبه وصميمه عيشة

الألوهة ، بعيداً عن أذى الحياة في حلم من أحلام الجنة . ولقد

تلعب ريشته وترقص ، فترسم لنا أخيلة لتلك السعادة التي يحكم

بها في هدوئه وتصوفه

فأبو شادي ذلك الانسان الدائم الحركة ، الموزع الجهود ،

المختلف الصور ، المتناقض السبل ، رجل يحمل في طياته شخصية

واحدة تظهر في شعره دائماً أتم الظهور ، وفي قصيدته « بعد

الكفاح » التي يتكلم فيها عن القطن المكس بعد جنيه ،

فيعطينا منه فكرة ، هي تلك الفكرة التي تشغل باله ، والتي

تشرق وتغرب فيها شخصيته ، فيقول :

هذي بقايا القطن ترقد في الثرى كجنود حرب بعد طول كفاح

صرعى مجندلة ، ولكن بعدما ضحّت بأجل نورها الواضح

حتى النبات يرى الضحية واجباً ومُنَى فليس يرضن بالأرواح

هذه الشخصية التي تجلت لي في مطالعة «الينبوع»

شخصية أبي شادي التي تلبس شعره هي بنفسها التي طالعتني

وتجلت لي يوم قرأت دواوينه السابقة ، وهي هي بنفسها التي يعيش

بها بين الناس ، فليس من الحق أن ننكر على شعرائنا ثبات

شخصياتهم في شعرهم إلا اذا دققنا واندمجنا في روح الشاعر ما

أنت سحر غامض للعالم أنت ينبوع الرجاء الدائم

أنت موسيقى الخلود الباسم أنت ومض للشريد الهائم !

أيها الينبوع يارمن الأبد ياشعاع الله في طيف الجسد

كم معانٍ فيك كادت لا تحدد وعزاءٍ عن حياة تفتقد !

دعوة صريحة إلى الشهوة ، وأن ليس فيها نظرة صوفية ،

ذلك أن فيها تقديساً للجسد ، وتقديس الجسد ليس من معاني

الصوفية عندهم . فهل يرى هؤلاء أن الشهوة حقيرة للدرجة التي

لا تسمح للشاعر بأن يتناولها في فنه مع أنها الدافع الأول الى

خلق مواهب الفنانين ، وليست العبقريات إلا شهوة مجمعت في

عدسة عين صوفية فتطهرت واستحالت سمواً . ومن منا ينكر

أن هناك مثالين عبدوا تماثيلهم وفتنوا بها بعد أن كانت فتنهم

وفقاً على المثال ، وهل عيب عليهم تصويرهم جسد امرأة عارية

يحمل معنى من معاني القداسة يراها المثال ويراها كل من مسته

يد الفن وإن خفيت على بعض الناس .

إن الفنان عند ما يتكلم عن الأجساد أو يصفها لا تكون لديه

إلا فكرة واحدة هي تقديس الجمال ، وهذا هو ما عناه الدكتور

أبو شادي في قصائده عن الجمال والحب ، وما عبر عنه بقوله :

عبي هو الفن الجميل ، وروحه روح السموّ وإن يعد ضلالاً

يعيش أبو شادي في بيئة ظالمة جاحدة ، تحيط به خصومات

وأحقاد وأعداء مناوئون ، وقصيدته « المهزلة » التي صور فيها

هذه البيئة تصويراً بديعاً سكب فيه من شعوره ما يتدفق حاراً ،

من أقوى الشعر الاجتماعي العاطفي . وفيها يقول :

ويلي من الدهر! يبكييني ويبتسم ولا يرد عوادي جورهِ السقم

قد عدّ شر ذنوبي ما يفيض به قلبي الى الناس من حب ويزدحم

ويلي من الدهر! ويلي! من أقرله هذا العتوّ؟ وهل في الحب متهم

أطلّ دمي وماء العين مضطرم

وهاج وجدى وسخط القلب محتدم

أنا الذي في شكاتي زار الشمم وفي بكائي وناري يهزم الألم

سخرت من بيتي لما برمت بها ونحت لكن نواحي كاه كرم

لست الذي إن تغالى في محبته فساء الدهر عمراً ناله الندم

وهو إذ يصور لنا البيئة المصرية - وكم له من صور عنها! منها

الحزينة الهادئة والصارخة المتهبة والتهكمة اللاذعة! - وينغمس

في مناقشات ومجادلات لا يفقد شخصيته البارزة ، تلك الشخصية

الصوفية الزاهدة فيقول :